الأميرة العاقلة

لم تكن ماسيا حاضرة وقت قتل حفيدها وابنتها. وهكذا تولاها الذعر من تلك الأعمال المريعة التي كانت تهدد الأسرة بالانقراض، كانت خطتها نقل السلطة الإمبراطورية إلى حفيدها الاسكندر بهدوء وسلام مع بقاء حفيدها الأكبر الإمبراطور في وظيفته الاسمية دون المساس به أو قتله. أصبح موت هذا الأخير المفاجئ المريع تطوراً خطيراً في القضية، أثار مخاطر لم تكن في الحسبان، إذ إن حكمه السيئ وأصدقاءه الأوغاد كانوا أفضل من الفوضى.

هتف الجنود بحياة الاسكندر وأعلنوه إمبراطوراً ثم حملوه باحترام إلى القصر. أسرعت ماسيا في تقديم الاسكندر إلى مجلس الشيوخ للمناداة به إمبراطوراً قبل ظهور شخص آخر يدعي هذا اللقب، إذ إن عمر هذا الإمبراطور البالغ خمسة عشر عاماً كان نقطة ضعف في قضيتها. وقد طلبت من مجلس الشيوخ الإنعام على حفيدها بألقاب وميزات لا تمنح عادة للإمبراطور إلا بعد تسلمه السلطة بوقت طويل. وللتدليل على استمرارية اسم الأسرة أطلق الاسكندر على نفسه لقب سيفيروس.

وافق مجلس الشيوخ حالاً على رغبات ماسيا، إذ إن المجلس ارتاح كثيراً لتخلصه من الإمبراطور السابق كما ارتاح في الزمن الماضي لتخلصه من كاراكلا. وكانت ماسيا حريصة على تشجيع المجلس لدعمها بالعطاء وتقديم الوعود بمعاملة الشيوخ باحترام والتعويض عن الأضرار التي لحقت بالمجلس بسبب وقاحة الإمبراطور السابق، وللبرهنة على جديتها عينت مجلساً مؤلفاً من ستة عشر شيخاً لإسداء النصح للإمبراطور في كل الشؤون السياسية، وقد كان لهذه اللفتة الأثر المرغوب. فقد استعاد المجلس هيبته التي كان قد فقدها منذ أيام الجمهورية أو على الأقل ذلك النصيب من السلطة الذي تمتع به المجلس عند تأسيس الإمبراطورية. ولكن في الحقيقة لم يكن للمجلس الجديد أي سلطة حقيقية، فالإمبراطور كان حراً في قبول أو رفض مقترحات ذلك المجلس حسب رغبته الشخصية.

كان أعضاء المجلس على صلات ودية مع الأسرة الإمبراطورية. وقد استدعت ماسيا (أولبيان) من المنفى وجعلته مساعداً لها في الحكم، وعينته عريفاً

للحرس البريتوري ثم رقته إلى مرتبة القنصل وجعلته في مستوى عضو من أعضاء مجلس الشيوخ.

أما أولبيان Ulpian فقد دعم ماسيا بإصداره تشريعاً يجعل الإمبراطور فوق القانون وجعل ماسيا مساوية للإمبراطور في هذا الوضع. وقد وهب الاسكندر جدته جميع سلطاته وامتيازاته، وتظهر النقوش التي كتبت في ذلك العهد الجهود التي بذلت لتعويد الشعب الروماني على اعتناق هذه الفكرة، فأصبح حظ الوراثة للاسكندر يعتمد على الجانب المختص بالأم فأصبح الاسكندر ابن جوليا ماميه وحفيد جوليا ماسيا.

أدخلت بعض الإصلاحات على البلاط الإمبراطوري فلم تكن (ماميه) أو (ماسيا) لتوافقان على تلك المقاييس التي كانت سائدة في الحكم السابق، فالضيوف يجب عليهم حضور الولائم الرسمية من الآن فصاعداً دون التعرض للمقالب والنكات من وضع الوسائد والبالونات تحت مقاعدهم، ولم يعد يسمح للبنات العاريات بالسير أمام العربة الإمبراطورية وجرها تحت لذع السياط.

واتخذ الدين أيضاً مظهراً محترماً رصيناً، فأعيد الحجر الأسود الذي جلبه الإمبراطور السابق إلى روما إلى معبد الإله ايلاجابال في حمص، وأعيد تكريس المعابد التي بنيت تكريماً لهذا الإله وخصصت لآلهة رومانية.

عاشت ماسيا ثلاث سنوات بعد ارتقاء الاسكندر العرش. وقد توفيت وهي في الخامسة والخمسين من العمر تقريباً، بعد أن نالت كل ما كانت تطمح به. ومع أنها كانت تفتقر إلى جمال أختها وسحرها ومواهبها الأدبية والفلسفية، إلا أنها كانت تضارعها في قوة الإرادة وقدرتها على إدارة شؤون الدولة. فقد جنبت الأسرة الانقراض بعد موت كاراكلا، وأصبحت المهندسة التي أعادت لتلك الأسرة سلطتها. وكان من سوء حظها ظهور ذلك الحفيد ذي النزوات الذي نغص عليها انتصارها وعندما مات وحانت الفرصة لتسلم خليفة كفء لم تعش لتجني نتيجة أتعابها.

بقيت ابنتها ماميه وحيدة لتحمل أعباء الحكم، ولكنها ورثت كثيراً من فضائل أمها ومقدرتها، فقد نجحت الإمبراطورية وازدهرت أثناء السنوات العشر القادمة بينما كان ابنها هو الحاكم الاسمي وهي الحاكمة الفعلية، ولكنها كانت تفتقر إلى قدرة والدتها على السيطرة على الحرس البريتوري. فقد بدأ هؤلاء يتململون تحت عبء الحكم الجديد، وقد حرموا من الرشوات القديمة. وكان (أولبيان) عريف الحرس البريتوري الجديد قاسياً في معاملته لهم فضاعت شعبيته، وكان يشبه (بابنيان) إلا أن الفرق بينهما أن بابنيان كان خلفه سبتموس سيفيروس لدعمه. أما (أولبيان) فلم يكن لديه من دعم يذكر.

بدأ التذمر يسود في المخيمات وكان الحرس البريتوري مكروهاً في روما لسلوكهم السيئ وكانوا متطوعين من ولايات بعيدة. وقد ساد الهرج والمرج بين هؤلاء الجنود واستمر القتال ثلاثة أيام مع وقوع حوادث وإصابات خطيرة. أشعل

الجنود النار في أحد الشوارع عندها أتى (أولبيان) بشخصه لمحاولة إيقاف الشغب. وفي الظلام ضل عن رفاقه واضطر للهرب إلى القصر والتجأ إلى الغرفة التي كانت تجلس فيها ماميه ومعها ابنها الإمبراطور. ولكن الحرس المشاغبين لحقوا به وتغلبوا على الخدم ثم دخلوا إلى غرفة الإمبراطور حيث لجأ رئيسهم وقتلوه أمام سمع وبصر الإمبراطور وأمه ماميه.

قتل (أولبيان) ولكن الإمبراطور وأمه لم يمسا بأذى فقد كان الجنود يحترمونهما وانسحبوا من الغرفة ومن القصر قانعين بما فعلوا في تلك الليلة. وكان المسؤول عن هذا الشغب أحد العبيد المتحررين الذين كان (أولبيان) يحمل له الحقد ووضع جائزة لمن يقتله واسمه ايباغاثوس Epagathas وكان هذا حائزاً على ثقة ماكرينوس الذي عهد إليه بصحبة ولده الطفل إلى (مارتا) وبعد أن سلم الولد للقتل أصبح ثرياً. ولكنه لم يكن على وفاق مع (أولبيان) وعمل على قتله. كان نفوذه عظيماً بحيث لم تستطع ماميه إعطاء الأمر بإلقاء القبض عليه. بل إنها أخرت انتقامها ولم تنس جرائم هذا الرجل. قدمت له وظيفة والي مصر وقبل الوظيفة بكل سرور. وحالما وصل إلى مصر، أخذته إحدى السفن حالاً إلى كريت حيث كان الجلاد بانتظاره وقطع رأسه بعيداً عن أعين مؤيديه في روما.

استمرت الاضطرابات في صفوف الحرس البريتوري أثناء حكم ماميه ولكنه لم يكن على مستوى التهديد لاستقرار الإمبراطورية، وعندما انتخب ديو قنصلاً بالاشتراك مع الاسكندر عام 229 نصحه الاسكندر بالابتعاد عن روما لأن الحرس البريتوري كانوا يكرهونه واكتفى بالإقامة في ريجيوم Rheaium جنوب إيطاليا ويتباهى ديو بالقول إنه على الرغم من هذا زار الإمبراطور في روما ورآه الجنود ولم يُلحقوا به أي أذى أو ضرر، ولكنه كان حذراً فلم يطل زيارتها سوى يوم واحد أو يومين.

كان الإمبراطور الجديد الاسكندر لين العريكة فلم يستطع فرض هيبته وكان اعتماده على أمه سبباً من أسباب هذا الضعف. فقد استلمت جدته وأمه الحكم منذ البداية، وكان حصيف العقل فلم يفكر بالثورة على هذا الوضع، إذ كان مصير ابن خالته إنذاراً صريحاً له، ولكنه لم يحتج لهذا الإنذار لأن طبيعته كانت هادئة ولم تحصل سوى بعض المناسبات القليلة التي كان تفكيره فيها يختلف عن تفكير والدته.

وعندما أصبح في سن الزواج اختارت أمه زوجة هي (باربيا اوربيانا) Barbia Orbiana وهي فتاة من أسرة أرستقراطية فَرَضِيَ بهذا الاختيار وعاش الزوجان الشابان بسعادة حتى بدأ الخلاف ينشب بين الزوجة الشابة وحماتها، فقد دبت الغيرة في قلب (ماميه) عندما نالت (اوربيانا) لقب الأوغسطا، وأصبحت مساوية لها في المرتبة، وزاد الطين بلة أن وهب الإمبراطور لقب القيصر لأبي زوجته، وكان هذا اللقب فخرياً وليس له من نفوذ مادي. فولي العهد الجديد أكبر

من الإمبراطور سناً ولا خوف منه إطلاقاً على الأسرة. ومع ذلك فقد كانت ماميه تخشى أن يفضل الإمبراطور أسرة زوجته ومصالحها مهدداً بالتالي نفوذها.

زاد الخرق واتسع بينها وبين زوجة ابنها ولم تنجح جهود الاسكندر في مصالحتهما، وأخيراً عيل صبر (ماميه) فطردت زوجة ابنها من القصر فذهبت هذه إلى والدها الذي التجأ إلى الحرس البريتوري الذين كانوا يُعتبرون ملجأ المظلومين. وقد أصر بالقول إنه ليس هنالك أي خصام بينه وبين الإمبراطور بل بالعكس كان شاكراً له لأنه وهبه لقب القيصر، ولكنه دعا الجنود لتأييده ضد والدة الإمبراطور وللانتقام لتلك الإهانة التي نزلت بزوجة الإمبراطور. ولكن الإمبراطور خيب أمله إذ أنه كان مخيراً بين الولاء لوالدته أو حب زوجته فاختار الأمر الأول، وظهر على رأس قوة من الموالين له في الحرس البريتوري الذين ألقوا القبض على الزوجة ووالدها. أما الزوجة فقد طلقت من الإمبراطور ونفيت إلى إفريقية وأما الوالد فقد تم إعدامه حالاً.

لم يتزوج الاسكندر بعد ذلك فقد كان ولداً خجولاً يتنصل من المسؤولية ويدع الأمور لأمه بكل سرور وغبطة، وكانت أمه تعيب عليه حبه لرفع الكلفة بينه وبين أصدقائه ومعارفه، وكان يكره أن يخاطبه الناس بلقب (اللورد) أو السيد الأعظم بل يكفي اسمه الاسكندر فقط، وكان مولعاً بالموسيقى وله صوت رخيم وكان يحب الحيوانات والطيور الأليفة ويقتني الطواويس وطائر السلوى والبط والحمام، وكان مقتصداً كأمه فقد غطى نفقات شراء تلك الطيور من بيع البيض والطيور الصغيرة التي تنتج لديه.

اشتهرت أمه بحب المال لدرجة التقتير والجشع مما سبب بعض الخصومات بينها وبين ابنها، ولكن كان اهتمامها بالمالية ذا فائدة ونتائج حسنة. فقد كانت نشيطة في كبح الفساد. وكذلك فإن توافر الأموال في الخزينة أدى إلى إنقاص الضرائب وتشجيع الفلاحين لإنتاج المواد الغذائية، وكان المزارعون الصغار والفلاحون هؤلاء أفضل من أصحاب الدساكر الواسعة الذين كانوا يغيبون عن دساكرهم ويتركون أمورها للعبيد. وبالوقت نفسه جرى ضبط الأسعار والاهتمام بعدم التلاعب بها وفي أثناء فترة قلة لحم البقر ولحم الخنازير صدر مرسوم إمبراطوري بمنع ذبح البقر والعجول والخنازير الصغيرة، وبذلك أصبح عدد الحيوانات في تزايد بالتدريج.

وقد عملت الدولة على إصلاح الإدارة العامة وكان من العادة لكل قاض أو وال يتولى الحكم أن يحتفل بهذه الوظيفة احتفالات مكلفة ومجالدات يدفع تكاليفها من جيبه. ولكن في النظام الإصلاحي الجديد بقيت الحفلات للترفيه عن الشعب كما كانت، ولكن الدولة هي التي أصبحت تدفع التكاليف وكذلك تكاليف نقل الوالي وحاشيته.

اعتبر حكم الاسكندر حداً فاصلاً في التاريخ، بدأت بعده الاضطرابات من تتابع سلسلة من الأباطرة سريعي الزوال الذين كان يدوم حكم الواحد منهم زمناً

قصيراً، ثم تبع ذلك الغزوات البربرية على الإمبراطورية، وهكذا أصبح الناس يستعيدون ذكرى تلك الأيام ويذكرونها بالخير بالنسبة لما أصاب الإمبراطورية بعد ذلك، فالحكومة كانت قوية وقادرة على حفظ النظام، وظل السلم مخيماً على العالم الروماني، وقد ظلت إدارة الإمبراطور هي السائدة على الرغم من تعيين مجلس استشاري من رجال مجلس الشيوخ، وتستطيع (ماميه) أن تباهي بحق أنها جعلت روما ترتدي طابعاً رومانياً أصيلاً على الرغم من أن الحكم كان بيد أسرة سورية.

وقد عملت ماميه كخالتها على دراسة كل الأديان واختيار الأفضل من كل دين ومزجها كلها في مجموعة جيدة من المعتقدات، حيث يجد الجميع الملاذ والصدق. وإذا كانت تختلف عن خالتها، فكان ذلك بالعطف العظيم على المسيحيين واليهود ففي المعبد الصغير في القصر كان هنالك تماثيل للآلهة الرومانية وكذلك للمسيح ولإبراهيم الخليل فضلاً عن الأبطال الوثنيين والمعلمين مثل الاسكندر الكبير وارفيوس وابوللونيوس. وقد كانت الديانة المسيحية محترمة حتى الآن، ولم يكن للأعمال التشنجية التي ظهرت زمن كومودوس أي أثر يذكر. وقد توقفت كلياً عندما بدأت الأميرات السوريات بالحكم. ومع أن المسيحية تمتعت بالسلام الخارجي إلا أنها لم تتمتع بالسلام الداخلي فقد نشأ النزاع بين زعمائها، الذين كان قسم منهم ذا أرضية يونانية وقسم ذا أرضية لاتينية رومانية. والقسم الأخير كان بقيادة كاليستوس Callistus الذي اتخذ لقب مطران روما والآخر هيبولاتيوس Gippolytus كان مطراناً معاكساً.

وكان الاختلاف بينهما في العقيدة حول طبيعة السيد المسيح. فقد كان كاليستوس يصر على عدم تجزؤ شخصية الإله فاتهمه هيبولاتيوس بالهرطقة والكفر، وإنه يعتقد أن الإله الابن قد تدلى على الصليب. ولكن كاليستوس أجاب أن الكافر هو هيبولاتيوس الذي يميز طبيعة الابن الإلهية عن طبيعة الأب وقد فضح نفسه حين أعلن ثنائية الإله ووجود إلهين في وقت واحد. وقد تفاقمت الخلافات الدينية عندما أُدخلت بينهما الخلافات الشخصية والحسد الشخصي؛ فقد اتهم هيبولاتيوس خصمه أنه انتهازي وأنه اغتصب لقباً ليس له حق فيه، والحقيقة أن المسيحيين لم يعودوا كما كانوا سابقاً، وذهب عصر أولئك المخلصين الذين لم يلقوا بالاً للأمور الدنيوية واعتمدوا على الأمور الروحانية فحسب. وهكذا بدأت المنازعات تدب فيما بنيهم.

إن قصة كاليستوس توضح وتصور الحالة التي كانت سائدة في الكنيسة في ذلك العهد، فقد كان أحد العبيد الذين استخدمهم رجل اسمه كاربوفورس وهو أحد العبيد الذين حررهم ماركوس اوريليوس وعينه مديراً لمؤسسة مالية في حي المال في روما. وكان سيده هذا مسيحياً كما كان هو مسيحياً، ولكن الشؤون المالية في تلك المؤسسة تضعضعت سواء بسبب سوء الإدارة أم بسبب الخيانة، وشكا أصحاب الأموال المودعة إلى سيده كاربوفورس الذي طلب رؤية حساباته، فهرب

كاليستوس إلى أوستيا Ostia ونزل في سفينة كانت على وشك الإقلاع، بينما كانت السفينة تستعد للمسير رأى سيده كاربوفورس قادماً في قارب، فما كان من كاليستوس إلا أن قفز في الماء أوشك على الغرق لأنه لم يُجِدْ السباحة فما كان من البحارة إلا أن قفزوا في الماء وأنقذوه من الغرق وذلك على الرغم من إرادته.

ربطوه وانتظروا قدوم سيده الذي أرجعه إلى روما، ثم أخذ يشغله في المخبز وفي طحن القمح في الطاحون، وكان هذا العمل مرهقاً فضلاً عن كونه لا يليق برجل كان يعمل أمين الصندوق في مؤسسة مالية، وبعد مدة أتى أصدقاء معلمه وأنبوه لمعاملته لأخيه المسيحي بهذا الشكل ورجوه العفو عنه، فأجابهم السيد أنه قد حزن لرؤيته دموع الذين أودعوا المال في مصرفه، والذين كان هذا العبد سبباً في خسارتهم أموالهم وفيهم الأرامل والفقراء. وإن جماعة المصلين المسيحيين من أصدقاء الطرفين أخبروا السيد أن كاليستوس كان لديه بعض المال الذي أخفاه في مكان ما، وإنه إذا سمح له بالذهاب وترك المطحنة فسوف يتدبر أمره ويجلب له ما تيسر من المال. وأخيراً وافق كاربوفورس على إطلاق سراحه ومنحه الوقت لتدبير المال اللازم.

كان كاليستوس قد أقرض أحد اليهود مالاً. وعندها أسرع لاسترداد ذلك المال. ولكن كان اليوم هو السبت وكان اليهودي غائباً عن بتيه وقد ذهب إلى الكنيس. ولما كان الرجل مضطرباً ومتحمساً لنيل ماله ذهب إلى الكنيس ودخل مكان تجمع اليهود للصلاة وأشار للرجل أن يوافيه للتحدث بشأن قضية مهمة، وعندها غضب اليهود من هذا التدخل، وعرفوا أنه مسيحي فظنوا أنه قد تعمد اهانة دينهم والإساءة إليهم، فهجموا عليه وضربوه ثم جروه إلى عريف المدينة واشتكوا أنه مسيحي تعمد إثارة الشغب في الكنيس اليهودي لتعكير جو السلم والهدوء الذي وهبهم إياه القانون الروماني، وعندما سمع كاربوفورس بالحادث أسرع إلى المحكمة وتعرف على كاليستوس وقال إنه أحد عبيده الذي فر منه وهو متهم بسرقة ماله. ولكن القاضي حكم على كاليستوس بالنفي إلى مناجم الفضة في سردينيا نظراً لاقتناعه بأنه مسبب للشغب.

كان كاليستوس لا يزال يعمل في الأشغال الشاقة في المناجم عندما مرت (مارسيا) وهي خليلة كومودوس وكانت هذه حامية للمسيحيين. وقد أقنعت الإمبراطور بالعفو عن أولئك الذين حكموا بالخدمة المؤبدة في مناجم الفضة وقد أعطاها أسقف روما لائحة بأسمائهم. ولكن اسم كاليستوس حذف من القائمة بسبب التقرير الذي ذكره كاربوفورس عنه، ولما علم كاليستوس أنه قد حذف عمداً من القائمة أخذ بالبكاء والنحيب بحيث رق قلب والد (مارسيا) بالتبني عليه وكان هذا قد أتى لتنفيذ أوامر الإمبراطور فأضاف اسمه إلى القائمة على مسؤوليته وهكذا رجع إلى روما وعُفِيَ عنه بسبب نفوذ مارسيا.

أحدث رجوعه ضجة في المجتمع المسيحي ولاسيما كاربوفورس. ولما كانت حالته حالة شخص محكوم فقد عفا عنه الإمبراطور فأصبح حراً وتخلص

من العبودية واستطاع أن يذهب حيث أراد. ولتجنب الشر، اقترح الأسقف أن ينتقل كاليستوس إلى مدينة انتيوم وهي على بعد خمسين ميلاً جنوب روما، وأن تدفع له الطائفة تعويضاً من المال ليعيش هناك. ومن الواضح أنه قد تمتع بحب الطائفة المسيحية واحترامها. وأصبح زعيم حزب أو جماعة المصالحة، وعند موت الأسقف حاز على رضا خليفته الذي كان يستشيره في أمور الطائفة، وأخيراً دعاه إلى روما فأوكله في رعاية شؤون المقبرة على طريق الابيان والتي لا تزال تحمل اسمه. وعندما سنحت له الفرصة اختير أسقفاً لروما فاحتج أعداؤه ولكن عبثاً.

هذا هو الرجل الذي كان مشرفاً على شؤون المسيحيين عندما استلم الاسكندر الحكم. ولكن خصمه هيبولاتيوس فضحه وذكر الناس بماضيه وزاد على ذلك بعض الأخطاء والآثام التي اقترفها من إغراء المتحولين إلى الديانة المسيحية للانضمام إلى حزبه والسماح للمذنبين الذين كان قد طردهم هيبولاتيوس بالرجوع إلى الطائفة، وقد اتهمه بتهمة أخرى وهي السماح لرجال الاكليروس بالتزوج ثانية وثالثة بعد وفاة الزوجة الأولى (مع أن ذلك كان ممنوعاً بالنسبة للاكليروس) وكذلك التغاضي عن سلوك المرأة التي تتصل جنسياً بأحد العبيد بشكل مؤقت ثم تتركه متى شاءت. وقد اتبع كاليستوس سياسة سيدنا نوح في الدفاع عن نفسه فقال إن سفينة نوح كانت تحتوي الصالحين والطالحين والحيوانات النظيفة والحيوانات القذرة. والحقيقة أن السبب الرئيسي لشكوى هيبولاتيوس من أن كاليستوس قد احتل مركزاً حساساً في الطائفة هو حسده منه.

لقد مات كاليستوس أثناء شغب حدث بعد مرور عام أو ما يقارب ذلك قبل ارتقاء الاسكندر عرش الإمبراطورية، ولكن هيبولاتيوس استمر في خصومته هو وخلفاؤه، وظلت تلك القضية قائمة حتى نهاية حياة (ماميه). كان الحادث الذي سبب المصالحة هو التعذيب الذي حدث للمسيحيين بعد سقوط تلك الأسرة عندما اعتبر المسيحيون أصدقاء لتلك الأسرة وتعرضوا للانتقام. وهكذا اعتقل هيبولاتيوس ومنافسه، فاتفقا ورميا جانباً بخصوماتهما وقد أرسلهما العهد الجديد إلى مناجم الفضة في سردينيا حيث قاسيا العذاب هناك وماتا.

وبعد مئة عام صعد نجم كلٍ من كاليستوس وهيبولاتيوس إلى القمة، فقد اعترف بهما قديسين مسيحيين وذكر اسمهما في التقويم المسيحي في 14 تشرين الأول لكاليستوس و 13 آب لهيبولاتيوس.

توفي تيرتوليان Tertullian في أوائل حكم الاسكندر. وقبل وفاته اتهم بالهرطقة لأنه كان يعطف على فرقة دينية تدعى المونتانيين Montanism وقد كان

هؤلاء يرفضون أي تساهل أو مصالحة مع العالم الوثني، وكانوا ينظرون بعين العطف ويحنون إلى تلك الأيام التي كان فيها المسيحيون جماعة صغيرة مختفية في غياهب المجتمع البشري يقدمون للعالم أمثلة عن التقوى والفضيلة، وقد تحملوا التعذيب ورحبوا به كوسيلة للحصول على الاستشهاد. ولقد سبب موقفهم هذا خصاماً مع المسيحيين الآخرين الذين كانوا يؤمنون بالشؤون الدنيوية، والذين أرادوا العيش بسلام مع السلطة الزمنية الحاكمة. اتسع الخرق وأصبح المونتانيون هؤلاء يشكلون فرقة دينية متحمسة يهمها الطهارة والتنسك والتمسك ببعض العبادات وهي الحجاب ولاسيما للبنات غير المتزوجات اللواتي طلب منهن عدم إظهار وجوههن دون حجاب.

يمكننا لمس نفوذ هؤلاء في المظهر العنيف الذي هاجم به هيبولاتيوس خصمه كاليستوس بسبب تسامحه مع التفاهات البشرية، ولكن الشؤون الرئيسة التي اختلف هذان بها هي تفسير الديانة وقضية التثليث. وقد كانت هذه القضية سبباً في انشقاق العالم المسيحي إلى فريقين متحاربين على رأس أحدهما آريوس وعلى رأس الفريق الآخر اثناسيوس Athnasius. وأما (ماميه) فلم تكن هذه الاختلافات لتهمها لأنها لم تكن مسيحية أصلاً ولم تؤمن بالثالوث المسيحي أبداً.

وبعد ذلك ظهرت تباشير نهضة فكرية وساعة على يد الحركة الغنوسطية[1] التي نشطت تعاليمها في الكنيسة منذ بداية القرن السابق ولا تزال تتمتع بكثير من التأييد على الرغم من وجود كثير من الدحض والرفض لها واعتبارها نوعاً من الهرطقة. وقد اجتذبت تعاليم هذه الحركة (ماميه) التي اعتبرت أن هذه الحركة قد استعارت أفكارها من التعاليم الوثنية الشرقية ومن مدارس الفلسفة اليونانية. وكان المشكل الذي احتل المرتبة الأولى في عقول الغنوسطيين هو أصل الشر. فلم يكتفوا بذلك التفكير الثنائي لطبيعة الإله، أي وجود الإله والشيطان التي ورثوها من التقاليد اليهودية. وقد أرفقوا الكمال بالروح وعدم الكمال بالمادة وهذا رأي أفلاطون وبدؤوا يتساءلون كيف أن الكمال اختلط بعدم الكمال والروحانية بالمادية.

١- الغنوسطية أو مذهب العرفان: مذهب مسيحي يعتقد أن المادة شر وأن الخلاص يأتي عن طريق المعرفة الروحية.

ويقدم لنا فالنتيوس وهو زعيمهم جواباً بشكل قصة خرافية. فقد اعتبر قضية الألوهية موجودة وكذلك تعدد الألوهية، حتى أتت الفضيلة وهي إحدى الصفات الإلهية واجتذبها الحب فانحدرت إلى الهاوية وهي برزخ عدم الوجود. ونتيجة لذلك فقد تحولت إلى روح من الأرواح الساقطة المدعوة (آشاموث) Achamoth التي حملت بعد اتصالها بالحب وولدت ولداً وهو خالق العالم المادي. وسقوط (أشاموث) هذه وتخليصها من الخطيئة ورجوعها إلى مركز الألوهية ما هي إلا حوادث تنتمي إلى الأبدية، ولكن تخليص العالم المادي الذي كانت هذه مسؤولة عن خلقه حدث على مدى الزمن عن طريق تدخل يسوع المسيح، وهذه الآلهة تختلف في قصتها عن قصة الملائكة الذين سقطوا بالدوافع التي تعزى إليها. فالشيطان يستسلم لروح الطموح وأما (آشاموث) فتستسلم للحب، وهكذا يظهر التمرد عن طريق الطبيعة الإلهية وفي داخلها من حاجة الواحد إلى الاكتفاء في الكثيرين. وقد شرح فالنتينوس الغرض من هذا، وهو أن الحب ليس حباً ما لم يكن هنالك محبوب.

مات فالنتينوس في منتصف القرن الثاني ومع أن حركته التي كان هو بطلها ومحركها قد ازدهرت في أوائل القرن الثالث، إلا أن أفكاره تعرضت للنقد والتجريح لأن الكثيرين لم يفهموها من أولئك الذين دعوا أنفسهم أتباعه، وإن سلوك الأتباع غير المستنيرين سبب السمعة السيئة لتلك الحركة. وقد عبروا عن الاحتقار والازدراء للطبيعة الدنيوية للإنسان، وهي ثمرة السقوط، ولذلك تراوح موقفهم ما بين التنسك والصوفية المحضة، وما بين الوجهات التناقضية التي تقول إنه ما دام الحلم يحتاج لتحقيق ذاته فإن الانغماس في الشهوات لا يجب أن يلام. زد على ذلك أن ذلك المظهر المتعالي الذي اتصف به هؤلاء زاد في نقمة المسيحيين عليهم فبادروا إلى شجبهم ورفضهم واعتبارهم كفاراً هراطقة.

إن شخصاً مؤمناً بالأوثان مثل (ماميه) ربما يجد في الغنوسطية ما يشفي الغليل أكثر من الكتاب المقدس. فبالنسبة إليها اعتبرت الإله يهوى هو (بعل) وهو يشبه ايلاجابال في حمص وقد اعتقدت أن إله اليهود ليس له الحق بالتعالي على الآلهة الآخرين. وكان من الصعب على المسيحية التوفيق بين رسالة المسيح مع طموح اليهود العنصري. فلم يسعهم أن يقطعوا صلاتهم مع الأشياء الأخرى ويعتمدوا على الشواهد الموجودة في الأناجيل وأقوال الرسل فقط، فقد كان من الواجب إيجاد خلفية تحتوي على أسس محترمة لدى القدماء تصلح لتكون هي المقومات الرئيسة للدين الجديد وذلك لكسب المؤيدين والمتحولين إلى الدين الجديد.

وقد كان لذلك المسيحي الشهير في ذلك الزمن وهو أوريجين Origen طريقة للتخلص من هذا الأشكال، فكان يقول عندما تتعارض إحدى آيات الإنجيل مع المبادئ الدينية التي يعلمها، يقول إن تلك الآيات هي آيات مجازية وإنه عندما يظهر الغرض المخفي وراء هذه الآيات ووراء معناها الحرفي يختفي

النزاع، وهكذا أصبحت التفاسير المجازية هي الطريق إلى الوصول للمبادئ المقبولة للتفكير المعاصر. وقد طبق هذه الطريقة كثير من الفلاسفة بالنسبة إلى هوميروس وكما فعل بلوتارك بالنسبة لإيزيس وأوزيزيس وقد استعملها أوريجين Origen لإيجاد حل وسط ومصالحة ما بين الفلسفة والوحي الإلهي المسيحي، ولكن الأجيال التالية رفضت فرض المعاني على التوراة بدلاً من التصديق المطلق لها. ولو انتصرت تعاليم أوريجين لَتَجَنَّبَ العالم المسيحي كُلَّ ما حدث فيما بعد من التعصب الديني البغيض.

لقد ولد أوريجين في الإسكندرية في زمن حكم كومودوس عام 185م وكان والداه وثنيين في ذلك الزمن فقد أطلقا عليه اسماً وثنياً من الأساطير المصرية ومعناه المولود من حورس. ولكن سرعان ما تحول والداه إلى الديانة المسيحية، وقد تثقف في المدرسة الشهيرة التي كانت تتبع التعاليم المسيحية التي ازدهرت في الإسكندرية في زمن كليمنت Clement وهو الأب المشهور للكنيسة. وقبل بلوغه العشرين من العمر، خسر والده حياته في عملية تعذيب على يد أحد الولاة الرومان الذي لم يكن موالياً للمسيحية، ولكن امرأة غنية من الطائفة المسيحية عطفت على ذلك الولد اليتيم واستطاع إكمال تعليمه بواسطتها. ولكنه كان فقيراً جداً فاضطر للعمل في نسخ المخطوطات لاكتساب معيشته، وقد باع جميع الكتب التي كان يملكها والتي كانت تبحث في الفلسفة ولم يبق لديه إلا الكتب الدينية المسيحية، وقد تخلص من تلك الكتب الفلسفية بسبب أزمة عاطفية كان يمر بها أوحاها له استشهاد والده، وكان يود لو استشهد هو نفسه، وهكذا رفض جميع التعاليم الوثنية، وتبني طريقة الحياة الصوفية. وفي برهة من برهات الاحتقار لإغراءات الشيطان خصى نفسه.

ولكنه ندم على هذا العمل في المستقبل وشجب هذا العمل لكونه تدخلاً بإرادة الله مما سبب حرمانه فهم الطبيعة الإنسانية. وكانت التقاليد تمنع وسامة الكاهن إذا كان مخصياً وعندما كبر وأصبح زعيم تلك الحركة التي تهدف إلى مصالحة التعاليم المسيحية مع الفلسفة انتهز خصومه هذه القضية للوقوف في سبيل ترقيته.

وفي أول الأمر عُومل باحترام على يد كبار المسؤولين من المسيحيين في الكنيسة وقد ارتقى من حالة الطالب ليصبح أستاذاً في المدرسة، وهكذا استطاع اكتساب مدخول مناسب، ولقد أُعجب به أسقف الإسكندرية وبقدرته على إيصال معلوماته إلى الآخرين وتعليمهم وكان أسقف الإسكندرية هذا يدعى ديمتريوس. وعندما توفي كليمنت عين اوريجين مسؤولاً عن المدرسة بدلاً منه وظل في ذلك المركز ثمانية وعشرين عاماً من 203-231م، وقد اكتسب شهرة عظيمة أثناء تلك الفترة وإن الوثنيين فضلاً عن المسيحيين جُذِبُوا للاستماع إلى محاضراته. وكانت المسيحية في ذلك الزمن مبعدة عن الأوساط العلمية لكونها برأيهم تعبر عن خرافات بربرية وهي فرع من اليهودية. ولكن اوريجين عمل على تقوية

مركز المسيحية وكان يناقش الفلاسفة بلغتهم ومفاهيمهم، وجعل ديانته في مركز المنافس لفلسفتهم وتستحق المناقشة والحكم عليها على الصعد نفسها وبالمفاهيم نفسها.

وقد كان عمله في المدرسة سبباً في إقامته مدة طويلة في الإسكندرية ولكنه هرب عام 226م من المذابح التي أوقعها كاراكلا في المدينة وتوجه إلى فلسطين. وهنالك خبر يشير إلى زيارته روما حيث حضر وعظاً قام به الأسقف هيبولاتيوس، وكانت (ماميه) على وفاق مع الأسقف هيبولاتيوس وشجعته على كتابة كتيب عن البعث والنشور، ولكنها لم تتحدث إلى أوريجين وهو مؤهل لتفسير التعاليم المسيحية باللغة التي تفهمها (ماميه) فقد وصل إلى روما وغادرها دون إثارة انتباه أحد، وبعدها ظل مشغولاً في مصر وظلت هي مشغولة في روما. ومع أنها سمعت بشهرته المتزايدة، لم تستطع مقابلته حتى عام 231 عندما كانت في أنطاكية لتدبير شؤون الحرب الفارسية التي سوف نذكر تفاصيلها في الفصل القادم وقد انتهزت فرصة وجوده هناك فدعته لزيارتها وأرسلت حرساً له من أفراد الحرس البريتوري لحراسته.

ثم ترك الإسكندرية ليعيش في قيسارية في فلسطين وذلك بسبب جفوة في العلاقات بينه وبين ديمتريوس الذي لامه لإقامته ولعظاته في الكنائس مع أنه لا يجوز لغير الكاهن التحدث في الكنائس وإقامة العظات فيها. وكانت كنيسة بيت المقدس وقيسارية تتغاضى عن مثل هذا الخرق. ولكن ديمتريوس كان حريصاً على اتباع حرفيات القانون، فلم يسمح بمثل هذه المخالفة لاسيما وأن المخالف هو اوريجين الذي رفض أن يسمه كاهناً. ولم يكن يحتج بسبب خصي اوريجين نفسه في شبابه بل بسبب تعاليم اوريجين الهرطقية في شكلها ومضمونها، إذ كانت تعاليمه تليق بفيلسوف وثني أكثر مما تليق بأحد أتباع الكنيسة.

وقد كان لديمتريوس شكاوى أخرى ضد أوريجين ولكنه لم يتفوه بها. فقد كان غيوراً من أوريجين الذي أصبحت شهرته تفوق شهرة ديمتريوس نفسه، ولقد زادت حدة المنافسة مع مرور الزمن، وكلما زادت شهرة أوريجين زاد إصرار ديمتريوس على عدم وسامته قسيساً... حتى اضطر أوريجين للتصرف بنفسه فذهب إلى فلسطين ووجد هناك أسقفاً صديقاً وافق على وسامته قسيساً. ولكن هذا العمل كان سبباً في ازدياد غيظ ديمتريوس، وعندما عاد إلى الإسكندرية استُدعي إلى مجمع ديني أعلن طرده من وظيفته كأستاذ وقرر نفيه من الإسكندرية. ولما وجد أن هذا الحكم مبرم اضطر لمغادرة البلاد وقد عقد مجمع في غيابه عزله من جميع الوظائف وحرمه من جميع الامتيازات التي منحت له. ومع أن معظم الكنائس قبلت مقررات مجمع الإسكندرية، إلا أن أساقفة فلسطين وفينيقية وبلاد العرب واليونان كل هؤلاء وقفوا إلى جانبه.

وهكذا استقر في قيسارية لاستئناف اشتغاله بالتعليم. وأصبحت المدرسة التي أسسها تفوق الإسكندرية في شهرتها.

ولما لم تعتنق (ماميه) الديانة المسيحية لذلك لم تهتم بالمنازعات والخصومات المسيحية سواء كانت سيامة أوريجين أو إدعاءات كاليستوس وهيبولاتيوس المتعارضة وإدعاء كل منهما استحقاقه للقب أسقف روما. وقد دعت (ماميه) أوريجين لمقابلتها لأنها اعتبرته أفضل رجل يتكلم كناطق رسمي باسم الكنيسة في ذلك الزمن، ومن المحتمل أن يكون موافقاً على موقفها في البحث عن الحقيقة بشكل من أشكال العقل المتفتح دون تعصب أو تزمت. وكان أوريجين قد صرح عن رأيه بالنسبة للذين يعبدون الشمس والقمر والنجوم، فقال إن هؤلاء مع أنهم على خطأ إلا أنهم أفضل حالاً من المسيحيين الذين يعارضون إطلاقاً كل التعاليم الوثنية وكل قيم المجتمع الوثني. فقد اعتبر هؤلاء مرحلة من المراحل التي توجت بظهور المسيح، فالمسيحية بالنسبة إليه ليست ذلك العامل القاهر الذي يجرف كل شيء أمامه ليوسع المكان لبنائه الخاص به، فعمل المسيحية في رأيه هو إكمال البنيان الموجود حالياً بدلاً من نسفه وتهديمه وإزالة عيوبه ثم تزيينه وإضاءته.

وفكر بإيجاد جواب لذلك السؤال: لماذا وجد العالم؟ فقد قبل رأي أفلاطون وهو تقسيم الأشياء إلى روح ومادة. وكان يختلف عن الفلسفة الوثنية في الإصرار على أن الإنسان يملك حرية الإرادة، وأن الله قد أتى إلى هذا العالم لتعليمه كيف يفعل ذلك. وبالنسبة لفكرة التجسد يرى تدخل المعلم الإلهي أو الطبيب النطاسي البارع. فالصليب لا يحمل معنى المقايضة بل يدل على الألم الذي تتكلفه المحاولة فالألم سوف يحمل ثمرته ويجب أن يحمل تلك الثمرة وأن رحمة الله تتسع للجميع، فإذا لم تتجه أي روح إنسانية في هذه الحياة إلى الله فهو يؤجل شفاء تلك الروح إلى العالم الآخر. وقد كان أوريجين مؤمناً بتتابع الحياة الأخرى وبتناسخ الأرواح فالمعلم الروحاني لا حاجة له للعجلة والاستعجال، فلديه وقت غير محدود لإتمام أغراضه وأهدافه المحبوبة.

وهنا تبدو لنا تلك الفكرة التي نجدها في الحركة الغنوسطية عن سقوط (آشاموث) وهي وجه تلميح إلى أن الخير يأتي من الشر. وأن الروح التي تتسلق الدرجات صاعدة إلى الأعلى تدخل في مرحلة تكون فيها أفضل حالاً من المرحلة التي كانت فيها عندما سقطت نظريته في السنوات الآتية، شجبت الديانة المسيحية هذه الفكرة واعتبرتها هرطقة وكفراً، فهي لا تتناسب مع العقيدة المسيحية لأنها أخذت من الديانة الفارسية القديمة تلك الفكرة عن وجود حرب ومنافسة بين الخير والشر. وعلى كل حال فإذا قدر لجميع الأرواح أن تحصل على الخلاص فأين إذاً أعداء المسيحية المحاربون؟ وماذا يحدث بجهنم إذا خلت من ضيوفها ومساجينها الذين كتب عليهم العذاب؟

وإن أسئلة من هذا النوع كانت تدور في خلد الناس في ذلك الزمن، أي في عهد أوريجين لاسيما في المجمع الذي طرده من مدرسة الإسكندرية فقد اتهموه بتعليم تلك الأفكار التي تقول إنه حتى الشيطان سوف يحصل على المغفرة والخلاص. وقد أنكر قول الكفر ولكنه اعترف أنه ربما كان قد قال شيئاً من هذا النوع في حدة المناقشات فلم يكن ذلك مهماً في نظره، فالشيطان بالنسبة له كان أقل حقيقة ووجوداً من تمثال الطبيب النطاسي الذي كان يعمل بين مرضاه الذين كان معظمهم في حالة مرض شديد وبعضهم في حالة النقاهة.

لقد سجلت جميع تلك الأقوال في مقابلاته مع (ماميه) في أنطاكية عندما عقدا محادثات مستفيضة، تكلَّمَ فيها كل ما استطاع لإثبات قدرة الرب وقيمة التعاليم الإلهية، وبعدها عاد إلى قيسارية وحوله حرس الشرف نفسهم لاستئناف أعماله في المدرسة هناك. وقد راقت أحاديثه (لماميه) فقد كانت عملية في تدينها ولم تكن الرموز لتعمل شيئاً بالنسبة لمعتقداتها. فقد أعادت الحجر الأسود إلى حمص بعد وفاة ابن أختها وأما ابنها فقد خجل من حمل لقب الكاهن السوري. وقد كان اهتمامها محصوراً بالأفكار، وكخالتها كانت مستعدة للإصغاء لأي كلمة تسمعها من أي شخص مهما كانت أفكاره ومهما كانت معتقداته، استطاع أوريجين أن يوضح لها كيف يمكن ربط الوعي بالفلسفة ووضعه في خلفية تنتمي إلى المعتقدات القديمة، وهكذا لم تعد النصوص حجر عثرة عندما استعمل المجاز في تفسير كل أنواع الغموض.

وبعد مئة عام تحول الإمبراطور قسطنطين إلى الديانة المسيحية التي أصبحت الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية. فانتصرت الكنيسة ولكن هذا الانتصار لم يكن ليرضي أوريجين فقد كان قسطنطين يطمح في الحصول على حليف يدعمه لإنشاء إمبراطورية من نوع جديد تقوم على أنقاض الخرائب والأطلال بعد قرن من الفوضى، كان يريد التحالف مع كنيسة منظمة لإتمام النضال بين الله والشيطان وبين الصواب والخطأ تكون فيه مصالح الله والعوام هي مصالح الدولة نفسها وكان هدفه هذا يتطلب نظاماً صارماً وبطركية ذات قوة مطلقة وقانون ديني صريح. فأَمَرَ بالسَّلام الذي في الأناجيل وأخذ في تطويع الجنود لأجل الحرب المقدسة، ولكن الذي جنى الفائدة هي الكنيسة فأصابت الفوائد المرجوة من الثروة والمقام والهيبة. فالتاريخ يسجل الثمن الذي دفعه العالم من أوله لآخره في تلك الأعداد الهائلة من الضحايا والأرواح التي زهقت بسبب التعصب الديني والنزاع.

ولقد قدر (لماميه) وأوريجين أن يتعاونا ولو اعترف بالدين الجديد في زمن ذلك العهد من حكم الأنطونيين حيث ساد السلم والاستقرار. فهل كانت الديانة المسيحية سوف تظل قريبة من روح المسيح الحقيقية؟ لقد كانت الأحوال الزمنية مواتية فلم يعد هنالك استعداد من قبل الشعوب لتحمل الرسميات الغامضة للديانات

القديمة، وأخذ الناس يبحثون عن إله قادر على بث العزاء في نفوسهم وإلهامهم. وقد جذبت الأسرار السورية والمصرية وما شابهها من أشكال عبادة المريدين وذلك لأن هذه الأسرار عبرت عن إيجاد هدف للحياة الإنسانية البشرية. ويلاحظ العالم الفرنسي جين ريفيل Jean Reville الطبيعة البشرية التي هي بحاجة إلى حاجات دينية فضلاً عن الحاجات العقلية والجمالية تنتقم عاجلاً أم آجلاً بسبب ذلك القحط والمجاعة المفروضة عليها، ثم تتحول وهي تشعر بالجوع العاطفي إلى المعتقدات والطقوس التي تستطيع أن تقدم لها الاكتفاء والشبع.

لقد كان على العالم أن ينتظر طويلاً قبل أن يشهد ذلك الاكتفاء والشبع الذي قدمته الديانة المسيحية. وفي تلك الفترة خسرت الرسالة كثيراً من نضارتها وحلاوتها، فبعد أربع سنوات من تلك المقابلة بين (ماميه) وأوريجين ماتت (ماميه) وتركت مهمة وضع خاتم الموافقة الإمبراطورية على اتخاذ الكنيسة والديانة المسيحية ديانة رسمية لقسطنطين، حيث بدأت الكنيسة تملي إرادتها على الجميع.

obeikandl.com